المحاضرة السابعة: التأويل اللساني بين الو اقعية وظاهر النّص

أهداف المحاضرة:

الهدف الخاص:

- أن يدرك الطالب العلاقة بين التأول اللساني وعملية الإبداع في تحليل النصوص.

الأهداف الإجر ائية:

- أن يستنتج استراتيجيات التحليل التأويلي الجمالي على النص
- أن يتبنى عقلا تأويليا في التحليل.

تمهيد:

تعلمنا التأويلية بشكل عام على كيف نقرأ بإبداع؛ وكيف نتقل من الفهم الابستيمولوجي إلى الفهم الوجودي، مجاوزة للقيود التقليدية الكلاسيكية إلى محاورة الوجود والحفر في مناطق "لم يُحفر فيها بعدُ"، كما يقول الباحث "عبد الغني بارة"؛ لتصبح كائنا متسائلا ومتفاعلا مع هذا العالم، تفهم ضمنه كينونتك ووجودك، لأنّ الإنسان كائن مؤوّل في حقيقته، وهذا بلا شكّ يتمّ بوساطة اللغة بما هي بيت الوجود، ومنبع الفلسفة والسؤال، ورحلة الكائن التي تنقله من وطن دلالي إلى وطن دلالي آخر؛ من العقل اليقيني الشمولي إلى العقل التأويلي.

تجعلنا التأويلية نتساءل عن الاستراتيجية الجمالية التي تمنحنا فرصة القراءة الجمالية من زوايا مختلفة ولكي ننتقل من رؤية تنظرية إلى ممارسة تطبيقية ارتأيت تخصيص الدراسة على كتاب الباحث "الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي ، خصوصا أنّه يُطبّق على القرآن الكريم، ومناحي أخرى. وقصد الإجابة عن هذا التساؤلات ارتأيت اتّباع النهج النسقي البنيوي؛ أي الانطلاق من الكتاب والعودة إليه، لأجل ضبط المفاهيم، تحصّنا من التيه في رحلة البحث.

1. مدخل مفاهيمي:

يعدّ كتاب "الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي"، مصدرا عربيا لمن رام فهم التأويلي في محاضنه الغربية، والتلقي العربي لهذا الموضوع. ففي رحلة بحثك عن فهم لماهيته تصطدم بعديد المؤلّفات، كلّ مؤلِّف يضع ترجمة خاصة حسب توجّهه المعرفي، لكنّ هذا الباحث، يحلّ مشكلة ترجمة المصطلح، بنقده المنطقي وحواره الهرمينوطيقي الثقافي، مما يجعلك تستهدي به مصدرا أوّلا لمجاوزة تفجر المعاني، وحلّ أزمة/إشكالية الترجمة والفهم. فهو يفرّق بين مصطلحات: التفسير، التأويل، الهرمينوطيقا، ويُفهمك أيضا معنى المؤوِّل، الفلسفة، المقاربة الأركيولوجية/ الجنيالوجية، فيقول:

- **التفسير:** "تكون صيغة تفسير مقابلا لمصطلح Exégèse، الذي يستخدم تعبيرا عن شرح Explication النصوص المقدّسة أو القانونية شرحا لغويا مدرسيا (سلوكائيا)، يكون بمثابة الحاشية الملازمة للمتن، معبّرا عن سلطة هذا المقدّس أو القانوني."[1]؛ حيث نجد أنّ هذا المصطلح يوجَّه إلى تقديم شروحات

[1] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص ص 93، 94.

تتعلق بالكتب المقدّسة بوجه التّحديد، تعبيرا عن كثافة الهالة القدسية التي تُحيط بها، ولا ريب في أنّ هذا النوع من الخطاب (القدسي) يحتاج إلى تبسيطات سياقية موضوعية: لغوية، اجتماعية، تاريخية (أسباب النزول)، دون فتح الباب على محاولة التأويل.

- **التأويل**: "أمّا كلمة Interprétation فتستخدم في الترجمة عن الفرنسية بمقابل عربي هو "تأويل"، الذي يتعدّى شرح النصوص المقدسة لغوياً إلى مرحلة أخرى أعمق يغدو فيها فناً أو جماليةً، يُعنى بأبنية النصوص الداخلية وحقائقها المضمَرة التي تتجاوز المعلَن، وحتّى الداخلي إلى ما هو إيديولوجي وتاريخي وثقافي. فيكون التفسير، بذلك، مرحلة أولى تسبق التأويل."[2] يتبيّن لنا أنّ الممارسة التأويلية بمثابة الخطوة الموالية للتفسير، حيث يُمنح القارئ الدّور للبحث في المضمر الذي لم يكشفه التّفسير بفنيّة وجمالية، من خلال تجاوز السياقات الموضوعية إلى الخبايا الثقافية والأنطولوجية، وهو هنا كإجراء يستعين بظاهر النّص للعيش في مخبره الوجودي.

- **المؤوِّل**: "interprétant، يعمل على تحويل المعرفة بين الثقافات قصد تفعيل ثقافة الحوار وإرساء أدبيات التواصل."[3] هذا يعني أنّ عمل المؤوِّل هو هدم الفردانية إلى تحقيق العلاقة التواصلية، ليس بين الأشخاص بل بين الثقافات، ليصبح الحوار ثقافة وكينونة أدبية/ أخلاقية كما يقول، ولا ريب في أنّ الحديث عن التواصل يحيلنا إلى الحركة الدائرية التي تأبى التوقّف، بل في كلّ طواف توسُّعٌ وارتقاء وانفتاح واحتواء أكبر، وتفعيل أعمق لثقافة التبادل؛ لأنّ التواصل الثقافي أوسع من هندسة رياضية تبادلية بين (x) و(y)، بل بين (x) متعدّد، و(y) متعدّد أيضا.

- **الهرمينوطيقا: "** كلمة "هرمينوطيقا" Herméneutique تعني، في الأصل،**"فن أو علم التأويل"**، أو بالأحرى هي أقدم الاتجاهات اهتماما بفن فهم النصوص. لا على سبيل كشف رمزها وتعرية مضمَرها، وإنّما الفهم يكون، دائماً وأبداً، تأويلا على غير مثال، بمعنى أنّه يبحث عمّا هو أوّل في الشيء. ويعود أوّل استخدام لمصطلح الهرمينوطيقا للدلالة على هذا المعنى عام 1654..."[4] من بين الترجمات المتعدّدة، يختار الباحث: "فن وعلم التأويل" مقابلا للهرمينوطيقا، بما هي فن فهم النصوص. لذلك علينا أن نعي بأنّ الهرمينوطيقا لا تبحث في الثابت اليقيني بل في الحركي المتفلّت، إنّها عملية الإبداع في قراءة الصامت المتواري، بما في ذلك من تأويلات وتفكيكات، تجعل الفهم، بعضه فوق بعض، لأنّك لن تكتشف كنزا ولن

---

[2] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص94

[3] المرجع نفسه، ص94.

[4] المرجع نفسه، ص100

تُمسك بفهم، بل ستكسب المساءلة، وتدخل في مغامرة السؤال، وستدخل في الزمن الهرمينوطيقي اللامنتهي.

- **الفلسفة:** "هي ميدان إبداع المفاهيم، كما يقول دولوز، لها رؤيتها الخاصّة في فهم الوجود أو الإنسان أو العقل، حتّى وهي توجّه السؤال لذاتها، فإنّها لا تحصل إلا على السؤال باعتباره جوهر المعرفة الفلسفية وبوابة إبداع المفاهيم."[5] حينما نذكر الفلسفة يقابلنا السّؤال، بعدّه مفتاح المغاليق، ذلك أنّ السّؤال يفتح الدّائرة المغلقة على العالم الأرحب بوعي الممارسة الذكية والثرّة، ويخلق دافعية للبحث عن الحقيقة. من الفلاسفة المشهورين: أفلاطون، أرسطو، كانط، نيتشه، وغيرهم، حتّى إنّك تجد المؤوّلين أنفسهم فلاسفة، إذ أخرجوا العقل من سجن الثابت إلى جمال الحر اللامحدود، فالفكر ليس حكما إبستيمولوجيا أو حقيقة يقينية بل رحلة جمالية في مراتع المعرفة حيث اللاحقيقة مكتمَلة، هذا يعني أنّ الوجود يحتاج إلى رؤية غيرية، ليست رؤية السؤال قصد الظفر بجواب أو تأسيس قاعدة معرفية ثابتة، أو كتابة وثيقة رسمية زمنها خطي، إنّما رؤية سؤال لأجل سؤال آخر، يهجّرك من وطن إلى وطن آخر، فكل سؤال هو وطن جديد، وميلاد رحلة مختلفة/ اللا انتماء.

- **المقاربة الأركيولوجية/ الجنيالوجية:** نجد الباحث يختار إجراء التأويل الأركيولوجي/ الجنيالوجي L'interprétation archéologique/ généalogique، **لكن ماهي الأركيولوجيا والجنيالوجيا؟** يجيبنا بقوله: "الأولى تسعى إلى تحويل الخطابات الناطقة إلى أنصاب، أي خطابات لا تقول شيئا، وتعمل على تحرير الوثيقة من حيّزها، وهنا يأتي دور الثانية، الجنيالوجيا... بما هي بحث في الأشياء، تصبو إلى بلورة فلسفة المختلِف différent، الأمر الذي يجعلها تعمل على رصد كلّ ما هو متميّز ومختلف في الأشياء، ومن ثمّ تغدو إعادة تأويل وقراءة لا متناهية للأشياء... فهي، إذاً، وقوف عند الجذور ليس بوصفها غايات وأصولاً، بل هي خلخلة وتفكيك لأبنيتها المركزية قصدَ إثبات فرعية هذا الأصل، واكتشاف الهامش الذي أزاحه المركز، واستنطاق النّص المكبوت/ المضمر الذي سكتت عنه ميتافيزيقا الحضور/ القول. إنّها نوع من "الأنطولوجيا التاريخية"."[6]

يمكن فهم الأركيولوجيا، من زاوية علم الآثار أو علم السجلات الصامتة، الذي يبحث في العوالم التي دثّرها الزمن، حيث يبدأ الباحث بإجراء حفريات أثرية على السّطح، ومسح للطبقات المتراكمة، وصولا إلى طبقة قد أخفت أثرا لثقافة تشكّلت فيها مفاهيم وحياة أماتها التاريخ، يحتاج الوصول إليها إلى تعرية البنى

---

[5] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص143.

[6] المرجع نفسه، ص ص 34، 35.

المعرفية وتفكيك المتراكم، وهدم السطح/ الظاهر/ الحاضر، ليس عملية إعادة إنتاج، بل إعادة قراءة تبرز "خصوصية الخطاب بوصفه خطابا مختلفا" والقول للباحث.

ما يمكننا فهمه مما سبق، هو أنّ "التحليل الأركيولوجي لا يسعى إلى القبض على الخفي والمسكوت عنه داخل الخطابات، فهو يؤمن بأنّ اللغة، من خلال العبارة، شيء غير قابل للرؤية، حتّى، وإن تمّ رصدا فهي عبارة أخرى مغايرة للتي تتجلّى بها أبنية النحو أو المنطق؛ إذ هي الآخر/ المختلف، والمرتحل عبر الصيرورة، والمتجدّد بفعل القراءة/ التأويل."[7] لكن اكتشاف ذلك النصب/ النّص الصامت، يحتاج إلى بحث جنياولوجي، يُخرجه إلى تأويل وقراءة أخرى، قصد اكتشاف الهامش الذي أزاحه المركز، واستنطاق المكبوت/ المضمر الذي سكتت عنه ميتافيزيقا الحضور/ القول، وهنا نكون مع معنى الخطاب في بعده التاريخي والثقافي، لأنّنا سنبحث عن تاريخ جديد يقبع تاريخيته، وبالتالي بحث عن رؤية/ قراءة جديدة تختلف عن سابقاتها، تنظر في الأنساق الخفية وما أضمره ذلك التراكم اللغوي.

لذلك، يرى الباحث أنّ هذه المقاربة، تعدّ فتحا فلسفيا جديدا، لا يؤمن بالجاهز/ المطلق/ اليقيني، بل تبحث في المختلف الذي يقبع الغياب، حيث تُعدّ حفرا في أبنية المعرفة وأنظمة الخطابات لتحديد تميّزها وسبب ظهورها بدلا من غيرها، إذ تبتعد عن خطية الزمان إلى تفكيكه، حتى يتسنّى لها الوقوف على المختلِف/ المفارق في صيغ الخطاب ووجوهه المتعدّدة، وهي مع ذلك لا تنظر إلى النّص على أنّه وثيقة حيث يقبع ما هو عميق وجوهري فيه، بل تُعنى بالنّص في حدّ ذاته بوصفه نصبا أثريا، كما لا تروم من خلال إجراء النبش/ الحفر التّماهي مع الأشياء، أو القبض على هويتها واستجلاء عمقها ومكنونها، وإنّما تضطلع بإبراز خصوصية الخطاب بوصفه خطابا غيريا.

2. الهرمينوطيقا الفلسفية ومشروع العقل التأويلي:

يفتح الباحث العقل على أنّ التأويل: هو فسفلة العَود، أو إعادة استكشاف؛ حيث يُعيد المؤوِّل اكتشاف ذاته واكتشاف الأشياء الوجودية وتشكيلها عبر اللغة، من خلال نقد ذاته والولوج إلى قلب التراث والثقافات ثمّ إعادة قراءة مشاريعها وتقويض أنظمتها المركزية، تعبيرا عن أفول عهد قديم وإشراق عهد جديد، وهو ما عبّر بانقضاء عهد المشاريع/ الصروح، وبداية عهد المعاودة/ المراجعة/ التقويض/ التفاعل/ الاندماج/ الحوار، في هيئة قراءة إبداعية تعيد بعث الأنساق الميْتة التي أُقبرت وهُمّشت، باعتبارها نصوصاً لها وجود وحياة، فقط تنتظر البعث من مؤوِّل مستكشف يرحل إلى زمانها، ليُعيد إحياءها في فهم جديد أو كتابة

[7] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص32.

أخرى، هذا لا يعني البحث عن المعنى الحقيقي الجاهز الكامن خلف المعنى الظاهر، بل إجراء التأويل الأركيولوجي/ الجنيالوجي، يتيح له فرصة الهروب الاستكشافي للفهم البعيد، كقراءة ثانية تبرز غيرية الخطاب ووجوهه المتعدّدة، ضمن قوانينه وأنساقه، من أجل الوقوف على المختلِف/ المفارق[8]، لكن "دون أن يكون ذلك مدعاةً للقول بأننا اكتشفنا كنزا أو أمسكنا الحقيقة، إنّما هو بعث/ إعادة تأويل على مستوى الممارسة التأويلية كفعالية نقدية لا تقف عند حدّ أو تدّعي الوصول. كما أنّ هذا الكشف يتيح لنا تعرية الخطابات الإيديولوجية داخل هذا المقهور/ الهامش، وفضح مضمراتها وتبديد أوهامها."[9]

مما يجعل الهرمينوطيقا فلسفة خاصة للفهم، أو لنقل كما قال: "فلسفة تكوين المفاهيم وإبداعها، ستعيد دائما وأبدا، طرح السؤال/ التأويل على ذاتها، حتّى لا تكتمل منهجاً أو مذهباً أو منطقاً، وبدل الحديث عن زمن العلامات والأشياء باعتباره زمناً خطياً temps linéaire ينقضي ويؤُول إلى أجل مُنتظر، يدور الكلام عن "زمن هرمينوطيقي" temps herméneutique، يكون زمنا دائرياً/ حلقياً temps circulaire يهدّد الهرمينوطيقا على الدوام بإعادة تأويل ذاتها"[10]

إنّ مفهوم الزمن من هذه الزاويه الهرمينوطيقية، يُعيدنا إلى الرؤية الفيزيائية للكون، لأنّ النسبية هي التي تحيط بالأزمنة والمسافات مثلما تحيط بالقراءات والتأويلات، وكما يُتحدث في الفيزياء عن فضاءٍ فوق الفضاء وسماءٍ فوق السماء، يُتحدث في الهرمينوطيقا عن فهم فوق الفهم ومعنى فوق المعنى، على هذا الأساس لا نجد منتهى للفهم ولا للتأويل لأنّه مقرون بالسؤال/ الفلسفة؛ وهو السبيل الذي نفهم به أنّه لا وجود لحقيقة ثابتة، ولا وجود لذات واحدة، ولا وجود لفهم يقيني، بل كلّ الأمور تخضع لمبدأ التجدّد والعودة والسؤال/التأويل.

وباعتبار الفلسفة سلسلة من تساؤلات بعدية، تتجاوز الحقائق الأوّلية وتبتعد عن اليقينية والوثوقية؛ أي أنّ الفهم الذي نصل إليه لا يُعدّ جوابا بل يطرح سؤالا أبعد لفهم جديد، وهكذا هلمّ جرا، فإنّ السّؤال يجعل الفهم دائما في أزمة عدم استقرار، على هذا الأساس تؤدّي تجربة السّؤال صلة الوصل بين الهرمينوطيقا والفلسفة . لهذا، نجد أنّ الوعي بالهرمينوطيقا الفلسفية يقتضي وضع ثنائية الفهم والسؤال في المركز، إذ إنّ الرؤية الفلسفية هي التّي تنقل أزمة المعنى إلى تأويل ينتقل من فهم إلى فهم آخر؛ لذلك يمكن

---

[8] ينظر: عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص11 وما بعدها.

[9] المرجع نفسه، ص12.

[10] المرجع نفسه، ص144.

اعتبارها الخلفية التي تدفع مشروع "العقل التأويلي" نحو البحث عن فهم مختلف في عمق تلك الأزمة، هذا يستلزم أنّ كلّ الأمور المحيطة بنا، بما في ذلك ذواتنا تحتاج إلى إعادة نظر، وإعادة فهم وإلى تأويل متجدّد.

3. نحو مشروع عقل عربي تأويلي:

بما أنّ الممارسة التأويلية، من منظور الباحث، تؤسّس لفلسفة السؤال الذي لا ينتظر إجابات، وأسلوبا يُقصي التفكير اليقيني إلى المراوغة والهروب التأويلي، علينا أن ندرك أنّ المهمّة لا تقف عند هذا الحد، بل بمفهوم أبعد، ووفق نظره؛ أن تصبح فهما للفهم، ونقدا للنقد، وتأويلا للتأويل، ومعنى للمعنى، وذاتا للذات، ونصا للنص التأويلي، مشروعا طموحا، يغزو أبنية المعرفة وأنظمة الخطابات، حفرا في التاريخ والثقافة والتراث استنطاقا للمضمر المهمّش، لاكتشاف الخصوصيات وإعادة النظر فيها، بوصفها خطابات مختلفة، متحرّرة من قيود السلطة والزمكان، تبحث عن مؤوّل في الممكن/ المستحيل على حد سواء.

إنّ مهمّة العقل التأويلي، إذا، والقول للباحث، "تكمن في تقديم البديل الأنطولوجي خَلَفا للمنهج العلمي، الذي أثبت عجزه في اكتشاف مضمرات خطاب الحقيقة، والتأكيد على تفلّت الحقيقة ولا نهائية دلالاتها، وكذا تمكين الذات العارفة من نقد نفسها بتحويلها إلى موضوع المعرفة... هكذا، فإنّ ما أضافه العقل التأويلي إلى الفلسفة هو طابع التحليل الأنطولوجي الذي جعل الذات تتعدّد بوساطة لعبة السؤال/ الجواب، إلى ذوات متعدّدة ومعها المعرفة/ الحقيقة إلى حقائق لا ينتهي تأويلها. إنّه نمط الوجود حيث ينتفي الثابت وتغيب القاعدة والمعيار ويتوارى الأصل الخالص المتعالي، ويذهب إلى غير رجعة، فلا يتبدّى إلا المتعدّد والمنفصل... هي إذا...تحوّلات من نمط المعرفة مع فلسفة العلم إلى نمط الوجود مع فلسفة التّحليل، وانتقال من سلطة التقنية العلمية والصرامة المنهجية والبحث عن إرساء دعائم القوانين الكونية الشاملة لمعرفة أبدية خالصة وإشاعة ثقافة المطابقة/ المماثلة بين الشيء ومدلوله، وبناء ذات عارفة/ متعالية بلغت درجة الكمال في تحصيل المعرفة، لا يلحقها قصور ولا يمسّها غياب، إلى سلطان الخيال والفن والجمال والتأويل، حيث يتعدّد النصّ نصوصا، والحقيقة/ المعنى حقائق، ويتحوّل السؤال إلى لعبة يغدو فيها الجواب سؤالا جديدا لإجابة/ سؤال وحقيقة/ معنى مرجأة/ مؤجّلة إلى حين."[11]

إنّ البديل الأنطولوجي الذي جعل الذات تتفاعل مع عالمها، تخلقه ويخلقها، هي المهمة التي جعلت العقل التأويلي يتجاوز أيّ فكرة ثابتة أو ذات متعالية تدّعي الوصول المعرفي والثبات العلمي، فطابع التحليل الأنطولوجي هو الذي حرّر المفرد إلى التعدّد، والمنهج الصارم إلى تأويل متجدّد وقراءات متواليه، كما فتح

---

[11] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص 148، 149

ثقافة المماثلة والمركز على ثقافة الأسلوب المائز والظّلال/ الهوامش، من التقنية الصارمه إلى فضاء الخيال والجمال حيث لا مجال إلا للمتعدّد والنسبي.

لقد حاورت هذه الدراسة مراحل وعي العقل بأنّ التأويل مطلب وجودي، حتى غدا، على فترات متوالية "عقلا تأويليا" من الفلاسفة إلى المؤوّلين، يُسقط/ يهدّم، الصنمية/ الشمولية/ الوثوقية/ الثبوتية، ليتحرّر من قيود اللاهوتية القبلية والتفكير الكلاسيكي المتحكم في إبداعه، ويعيد اكتشاف ذاته ووجوده؛ فبعدما كان الفهم يُفرض، والمعنى يُضبط في نسق مغلق، وبعدما حاصرت العلمية الموضوعية مجالاته، حتى وإن تعدّدت وانفصلت إلا أنّها في الأخير تجتمع لتشكيل ذات النظام على ما كان عليه، شاملا متّحدا، ظاهرة اجتماعية لكنّه منغلق، زمنه محصور في نقطة من **المدى**، بعد كلّ هذا، جاء العقل التأويلي ليقوّض هذا المنهج المتسلّط، وتلك المركزية، فيتجاوز المحكي إلى الصامت والحاضر إلى الغائب، ويتحدّث عن التشظي المعرفي والدلالي.

وكذلك العقل العربي التأويلي الذي يقوم على شعرية الجميل، وهو كما يزيد توضيحا، العقل الذي يسع العقول كلّها، بيانها وبرهانها وعرفانها، فيحقّق شريعة الأمّة ويحفظ لها جمالها ووجودها: "ألا يستحق هذا التراث، بما هو الوجه الآخر لكينونتنا، حبّاً أكبرَ، نتعاطف مع نصوصه عساها أن تُتيح لنا فتح بعض أقفاله، إذ لا وجود لنصٍّ قديم/ جديد، جيّد/ رديء، بقدر ما يوجد هناك تأويل غنيٌّ/فقير، فاتن، مُغرٍ أو لا. فليس غريباً، إذاً أن تكون مثلُ هذه الغايات هي ما يطرح إليه هذا الجهدُ، أي النظر إلى قضايا التأويل من جانب استراتيجية جمالية، لا همَّ لها إلّا الوصولُ إلى تأسيس عقل تأويلي يقوم على شعرية الجميل، عقلٍ يسع العقول كلَّها، بيانّها وبرهانّها وعرفانّها. والعملُ، في المحصلة على تشييد عقل عربي تأويلي مهمّته تحقيقُ كونيةِ هذه الشّريعة الأميّةِ، بما هي النّصُ الجامعُ، المختلِفُ/ المؤتلفُ في آن، وذلك بإرساء أدبيات الحوار مع الذّات والآخر، والعملُ، أيضاً، على استعادة إنسانية الإنسان، بوصفها جوهرَ الوجود البشري، والأساسَ الذي به تَحقّق التكريم وكان التكليف، إنّه الكلام الجميل للكائن الجميل . . ."[12]

على هذا، يكون العقل التأويلي، هو العقل الثّائر على كلّ فكرة ضدّ الاكتشاف والترحال، ليس بمعنى التماهي أو الفناء والتعلّق بالشيء، بل تحرّرا وتبادلا تواصليا مع الآخر/ الثقافات، ودعوة متجدّدة إلى البحث عن فهم مختلف، من خلال مغامرة الحفر والنبش لا عن الكنز، بل عن السؤال والبداية والعود واللاانتماء، بمنهجية المحاورة للصامت والغريب الذي لن يبوح إلا لمن أوتي عقلا تأويليا، اعتاد اللعب مع السؤال، وأدرك

[12] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص574.

أنّ الجواب ليس إلا سؤالا جديدا لسؤال آخر، يعي بذكاء الممارسة التأويلية، أنّه لن يحظى بالحقيقة ولن يُمسك بالفهم، بل سيدخل في زمن هرمينوطيقي مليء بالتساؤلات والتأويلات والتفكيكات، بعضها فوق بعض.

فعلى قدر الجمال الذي شُيّد به التراث، يوجد عقل عربي آخر، شغوف بالسّؤال والحوار الخلّاق، هذا العقل التأويلي الذي "يرفض التسليم أو الوقوف على الدلالات القديمة التي تسلّمها من سلفه حقيقةً واحدةً كاملةً لا يلحقها قصور."[13] ؛ "معه بُعثت الممارسة التأويلية التي لا سُلطان فيها إلا للجميل والممكن والمختلف."[14] وهنا يتساءل الباحث مُظهرا غايته الحقيقة من مُنجزه، وهو تشييد عقل عربي تأويلي، يجعلنا نبحث معه عن الاستراتيجية الجمالية التي تهيّئ العقل التأويلي ليتبنى فلسفة لا تؤمن إلا بالجمال ولا تفتح باب السؤال إلا للجميل.

خاتمة:

بعدما سبق، تبيّن هذه الدراسة كيف سعى الباحث الجزائري "عبد الغني بارة" إلى تشييد عقل عربي تأويلي، يؤمن بضرورة تقويض المركزية الصنمية اليقينية، وهدم فلسفة الثوابت، إذ لا وجود لمعنى مطلق أو حقيقة سرمدية أو ذات متعالية، أو تقنية علمية صارمة تفرض وتتحكّم في المعنى وأبعاده، بل على العكس، تجده عقلا يحوي العقول كلّها، ليقرأ من جديد برؤية فلسفية تأويلية، يحبّذ اللّعب مع المساءلة والمغامرة في هذا المجال الشاسع، فيمحو كلّ فكرة سابقة، حتى ينفتح على عوالم وأنساق أخرى غيّبتها قراءات قبلية، بحوار خلّاق ينتقل من رؤية للوجود إلى رؤى فيه.

إنّ هذه المنهجية التأويلية لا بدّ أن تدخل ميدان التطبيق، فيتبنّاها المحلّلون في رؤيتهم الجمالية للتراث العربي، وذلك بتجسيد هذا العقل البياني البرهاني العرفاني الذي يسع العقول كلّها. ولأنّ القراءة حدث نسبي ورؤية أنطولوجية خاصة، فإنّ العقل في هذه الحالة أسلوب خاص، إذ تقف وراءه استراتيجيات أو لنقل أسلوبيات؛ فلسفية وتأويلية وتفكيكية جمالية شعرية، لأنّ البحث في الغياب والمجاز والظلال والأنساق المضمرة يحتاج دراية متخصصة بالثقافة والتاريخ والخصوصيات التي أنتجت ذلك الوجود اللغوي، أي دراية بأبعاد الخطاب وبآفاق العقل التأويلي بيانا وبرهانا وعرفانا، وهو ما يخلق التفاعل بين الجميل والجميل، أي بين القارئ والمقروء.

---

[13] عبد الغني بارة، الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، ص254.

[14] المرجع نفسهظن ص 244.